المقامات

المعنى اللغوي والاصطلاحي :

قال ابن منظور : المقامة . بالفتح . المجلس . والجماعة من الناس(١٢٥٦) . وكلا المعنيين نجدهما في شعر ماقبل الاسلام . اذ جاءت بمعنى المجلس في قول زهير بن ابي سلمى :

وفيهم مقامات، حسانٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ(١٢٥٧)

ووردت بمعنى الجماعة من الناس التي يضمُّها المجلس في قول لبيد :

ومقامةٍ غُلبِ الرّقابِ كأنّهمْ جِنٌّ لدى طَرَفِ الخَصيرِ قيامُ(١٢٥٨)

والمجلس في الغالب تدور فيه احاديث للمسامرة . وقد كانت للعرب قبل الاسلام مجالس سمر يتحدّثون فيها بقصص الجن والحيوان ويتحدثون بالمواعظ والامثال (١٢٥٩). « ونتقدم في العصر الاسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة او غيره ويتحدّث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم اكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة(١٢٦٠) » وقد عقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فصلاً في كتابه عيون الاخبار بعنوان « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » اورد فيها عشر مقامات . وهي مواعظ يقف فيها الراوي امام الخليفة لنصحه وارشاده . من ابرزها مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبدالعزيز . ومقام الاوزراعي بين يدي المنصور . ومقام

(١٢٥٦) لسان العرب ١٢ : ٤٩٨ .

(١٢٥٧) قال الاعلم الشنتمري : المقامات المجالس ، سميت بذلك لان الرجل كان يقوم في المجلس فيحضُّ على الخير ويصلح بين الناس ، واراد بالمقامات اهلها ولذلك قال « حسان وجوههم » . والاندية : جمع نديّ ، وهو المجلس والمتحدّث . وقوله « ينتابها القول والفعل » اي : يثبت فيها الجميل من القول ويعمل به (شعر زهير بن ابي سلمى ص ٣٨) .

(١٢٥٨) شرح ديوان لبيد ص ٢٩٠ . الخصير : الملك

(١٢٥٩) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٦

(١٢٦٠) المقامة ، للدكتور شوقي حنيف ص ٧

صالح بن عبدالجليل بين يدي المهدي(١٣٦١) . وورد ذكرها عند ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) في كتابه العقد الفريد بعنوان « مقامات العباد عند الخلفاء » . من ابرزها مقام ابن السمّاك عند الرشيد .(١٣٦٢)

نخلص مما تقدم ان المقامات كانت تُعنى ـ قبل ان تتخذ مدلولها الاصطلاحي ـ بأحاديث بالنصح والارشاد والوعظ والتقويم الخلقي ؛ وللاستدلال على ذلك نأخذ جزءاً قصيراً من مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور : « بينما المنصور يطوف ليلاً اذ سمع قائلاً يقول : اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض . وما يحول بين الحقّ واهله من الطمع ، فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد . وارسل الى الرجلْ يدعوه . فصلّى الرجلُ ركعتين . واستلم الركن . واقبل مع الرسول . فسلّم عليه بالخلافة . فقال المنصور : ماالذي سمعتكَ تذكُرُ من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ماأرمضني(١٣٦٣) : قال : ياأمير المؤمنين ان امَّنتني على نفسي انبأتك بالامور من اصولها . والا احتجزتُ منكَ واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغلٌ . فقال : انت آمنٌ على نفسك فقُل : فقال : انَّ الذي دخله الطمعُ حتى حال بينه وبين ماظهر من البغي والفساد لأنت : قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع . والصفراءُ والبيضاء في قبضتي . والحلو والحامض عندي ؛ قال : وهل دخل احدٌ من الطمع مادخلكَ ! انَّ الله تبارك وتعالى استرعاكَ المسلمين واموالهم . فأغفلت امورهم . واهتممت بجمع اموالهم . وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجَصِ والآجرّ وابواباً من الحديد وخَجَبةً معهم السلاحُ ثم سجنت نفسك فيها عنهم . وبعثتَ عُمالك في جباية الاموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكُراع(١٣٦٤) . وامرت بالاّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفرٌ سميتهم . ولم تأمر بايصال المظلوم والا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ... فكيف تصنع بالملكِ الذي خولك مُلكَ الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ... هل يغني عنك ماشححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يديك ودعاك الى الحساب . فبكى المنصور وقال : باليتني لم أُخلق ... »(١٣٦٥) .

(١٣٦١) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٢ ـ ٣٤٣ .

(١٣٦٢) العقد الفريد ٣ : ١٥٨ ـ ١٦٤

(١٣٦٣) ارمضني : اوجعني وآلمني

(١٣٦٤) الكراع : الخيل

(١٣٦٥) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٢ ، العقد الفريد ٣ : ١٥٩

واصبحت المقامة فيما بعد مصطلحاً ادبياً تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شكل اقصوصة منمقة في الفاظها واسلوبها . فيها شيء من الحوار . وتعتمد في الغالب على راوٍ واحد وبطل اديب متحايل . يراد بها وصف حالة نفسية . او مفارقة ادبية . او مسألة دينية . او قضية علمية .. وتنطوي على لون من الوان النقد . او التهكم والسخرية . او التصحيح والتقويم . او الثورة ... ويعد بديع الزمان اول من اعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الادباء .

نشأتها :

اختلف الذين أرخوا للادب من المحدثين وتضاربت آراؤهم في تعيين مبتدع المقامات إذا نجد رأياً يقول : إن أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هو المنشيء الأول للمقامات في رسالته « التربيع التدوير » أو في رسالته « صناعات القواد » . ويذهب رأي ثانٍ الى أن أبا بكر محمد بن الحسين الأزدي (ت ٣٢١ هـ) هو مبتكرها والسابق لها . استناداً الى نص أورده الحصري القيرواني في زهر الآداب يُشير فيه الى أن بديع الزمان عارضَ ابن دريد في أحاديثه الأربعين .. وثالث الآراء يقول : إن المبتكر الأول لها هو أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٠ هـ) أستاذ بديع الزمان . ورابع الآراء يرى أنا أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) ابتدعها وأنشأها(١٣٦٦) ... واذا احتكمنا الى القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات المشهورة (ت ٥١٦ هـ) نجده يقول « قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدتْ في هذا العصرِ ريحهُ . وخبتْ مصابيحهُ . ذكرُ المقامات التي ابتدعها بديعُ الزمان . وغلّامهُ همذان . رحمهُ الله تعالى . فأشار مَنْ إشارتُهُ حُكْمٌ . وطاعتُه غُنْمٌ . الى أنْ أنشيء مقاماتٍ أتلو فيها تلو البديع . وإن لم يُدرك الظالع(١٣٦٧) شأو الضليع(١٣٦٨) لبيتُ دعوته تلبيةَ المطيع . وبذلتُ في مطاوعته جهد المستطيع . وأنشأتُ على ماأعانيه من قريحة جامدة . وفطنةٍ خامدةٍ . وروية ناضبةٍ . وهموم ناصبةٍ . خمسينَ مقامة »(١٣٦٩) . ويقول القلقشندي : « إعلم أنَّ أول من من فتح باب عمل المقامات .

(١٣٦٦) تنظر تفاصيل هذه الآراء في بحث الدكتور محسن غياض (مقامات بديع الزمان الهمداني) المنشور في مجلة الطليعة الأدبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

(١٣٦٧) الظالع : المائل عن الطريق القويم ، الذي يغمز في مشيته

(١٣٦٨) الضليع : السمين القوي ، والضلاعة : قوة الاضلاع .

(١٣٦٩) مقامات الحريري ص ١١

علّامة الدهر . وإمام الأدب . البديع الهمذاني ، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه . وهي في غاية من البلاغة . وعُلوّ الرتبة في الصنعة »(١٣٧٠) .

وخلاصة القول عندنا أن بديع الزمان كان أديباً عالماً . مثقفاً بثقافة كبيرة مستوعباً أغلب الكتابات التي أنشاها السابقون . وفكرة المقامات بصيغتها وشكلها المعروف هو صاحبها . ويعود له الفضل في إعطائها المعنى الاصطلاحي بين الفنون النثرية في الادب العربي .

أصحاب المقامات :

انتشرت مقامات بديع الزمان انتشاراً واسعاً بين الشرق والغرب .(١٣٧١) . وأقبل الكتّاب على قراءتها وتدبيج المقامات على هديها وإن اختلفت في الأساليب والمضامين . وقد أشار بلاشير الى ستة وسبعين كاتباً من كتّاب المقامات . منهم سبعة ورد ذكرهم من بديع الزمان الى الحريري(١٣٧٢) . وهم :

١ ـ أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ.
٢ ـ أبو الاصبع عبد العزيز بن تمام العراقي .
٣ ـ أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نُباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ.
٤ ـ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان المتوفى سنة ٤٦٠ هـ
٥ ـ أبو النصر عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن نافيا المتوفى سنة ٤٨٥ هـ.
٦ ـ أبو حميد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
٧ ـ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١٣٧٣) .

(١٣٧٠) صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ : ١١٠ .
(١٣٧١) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٣٧ ـ ٢٦٦ ، تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٠٢ ـ ٣٢٦ .
(١٣٧٢) المقامة : بلاشير ـ المشرق عدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ ، وينظر : بديعيات الزمان ص ١٢٩ ـ ١٣٧ ، راى في المقامات ص ٣٣ ـ ٢٥
(١٣٧٣) ينظر الى اصحاب المقامات بعد الحريري في كتاب فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٣٦ ـ ١٤٦ .

موضوع المقامات :

ساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد القرن الثالث للهجرة . ولاسيما بعد ضعف مركز الخليفة . وسيطرة الأعاجم على شؤون الدولة ومرافقها العامة . وتفشي الظلم الى جانب الفقر والعوز . وأصبح الكثيرون في المجتمع آنذاك منهم علماء وأدباء في ضيق وحرج حتى اضطر بعضهم الى الاختيال والتحامق والاستجداء . (١٣٤) . وقد سرّ بديع الزمان هذا الواقع المرير والوضع المزري خير تصوير بأسلوب تطغى عليه روح الدعابة والمرح والفكاهة والاضحاك على لسان راو اسمه عيسى بن هشام ومحتال ذكي في صورة شحاذ يدعى أبا الفتح الاسكندري .

والى جانب الموضوع الذي يصور المجتمع في فقره وبؤسه وحرمانه من الحرية والعيش العزيز الكريم ، نجد موضوعات تأخذ طابعاً ثقافياً من ذلك مقامات في النقد الأدبي ،(١٣٥) مثل : العراقية . والشعرية . والقريضية . ومنها دينية وعظية في النصح والإرشاد واتباع الخلق القويم والطريق المستقيم مثل : الأهوازية . والوعظية . ومنها وصفية تتناول العادات والطبائع والمآكل والمشارب(١٣٦) والحيوانات والمدن ...

واذا أمعنا النظر في مقامات الحريري نجد أيضاً الكُدية تلازم بطلها أبا زيد السروجي الذي يروي اخباره الحارث بن همام . واذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الاسكندري واعظاً وناصحاً العباد الى مافيه صلاحهم في مقامتين، فان الحريري عرض أبا زيد السروجي وأعظاً في عشر مقامات ولعل أطرف مانراه في المقامة الثانية عشرة . الأدعية التي يرجو فيها من الله أن يرحمه وينقذه : من الباغين والطاغين والجائرين : « اللهم يامحيي الرُفاتِ . ويادافع الآفاتِ . ويااوافي المخافات . وياكريم المكافاة . ياموئل العُفاةِ صلّ على محمدٍ خاتم أنبيائك . ومبلّغ أنبائك . وعلى مصابيح أسرته . ومفاتيح نصرته .وأعذني من نزعات الشياطين . ونزوات السلاطين . وإعناتِ الباغين . ومعاناةِ الطاغين . ومعاداةِ العادين . وعدوانِ المعادين . وغُلب الغالبين . وسلب السالبين . وحيل المحتالين .

---

(١٣٤) ينظر بحث الدكتور صفاء خلوصي (أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع) مجلة المعلم الجديد العدد الاول لسنة ١٩٦٢ .

(١٣٥) ينظر بحث الدكتور محمد قاسم مصطفى (النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان الهمذاني) مجلة المورد العدد ٣ ، سنة ١٩٨٤ .

(١٣٦) ينظر بحث صبيح صادق (بغداد من خلال المقامات) مجلة المورد ، العدد ٤ سنة ١٩٧٩ .

وغيلِ المغتالين . وأجرني اللهمَّ من جور المجاورين . ومجاورة الجائرين . وكفَّ عني أكفَّ الضائمين . وأخرجني من ظلمات الظالمين . وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ... اللهم أحرسني بعينك . ودعوتك . واخصصني بأمنك . ومنّك . وتولني باختيارك وخيرك . ولاتكلني الى كلاءة غيرك(١٣٧٧) وهَبْ لي عافيةً غير عافية(١٣٧٨) . وارزقني رفاهيةً غير واهية واكفني مخاشيَ اللأواء .(١٣٧٩) . واكنفني بغواشي الألاء(١٣٨٠) . ولاتظفر بي أظفارَ الأعداء . إنك سميعُ الدعاء »(١٣٨١) .

ان الطابع الديني القائم على التوجيه والارشاد واصلاح النفوس من الشرور والآثام . قد اصبح سمة بارزة عند الكثيرين الذين جاؤوا بعد الحريري . مثل الامام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) . وأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ... وتجدر الاشارة الى ان المقامات عند بعض الكتاب تغيرت طريقة التناول والعرض فيها عما وضعه السابقون . ولاسيما بديع الزمان الهمذاني والحريري اذ تخلصت من الرواية واكتفت بالحكاية وقد عبر بعض من هذه المقامات عن الاحداث الكبيرة والويلات والمصائب التي ابتليت بها الامة العربية . مثل ما فعله التتر في زحفهم على المشرق ولاسيما على العراق وديار الشام . اذ نرى الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني(ت ٦٩٧هـ) ينشيء مقامةً طويلةً بعنوان : « مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية » .(١٣٨٢) تصف باسلوب حزين الوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل آخر خليفة عباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٦ للهجرة ننقل منها الفقرات الآتية : « وافيتها بلدةً خاليةً . وأمةً جاليةً . ودمنةً حائلةً . ومحنةً جاثمةً . وقصوراً خاويةً . وعراصاً باكيةً . قد رحل عنها سكانها . وبان عنها قطانها . وتمزقوا في البلاد . ونزلوا بكل وادٍ . وقصورها المشيدة مهدومة . ونعماؤها مسلوبة معدومة . موحشة لفقد قطانها . باكية بلسان الحال على سكانها . عظام العظام بالية . تسفي

(١٣٧٧) لاتكلني الى كلاءة غيرك : لاتدعني الى حفظ غيرك

(١٣٧٨) غير عافية : غير دارسة .

(١٣٧٩) اللأواء : الشدة والضيق .

(١٣٨٠) أكنفني : احفظني في كنفك . الغواشي : مايغطى به الشيء مثل غاشية السرج . الألاء : النعم .

(١٣٨١) مقامات الحريري ص ١٠٩ .

(١٣٨٢) حققها كوركيس عواد . وطبعها بمطبعة الارشاد ببغداد سنة ١٩٦١ ، ثم اعاد نشرها في مجلة المورد . العدد الرابع الخاص عن بغداد سنة ١٩٧٩

عليها الرياح السافية . « فهل ترى لهم من باقية »(١٢٨٣) فوقفتُ أبكيها . وأندب ربوعها ومن كان فيها

وأندب اطلالـــــــــــها تارةً وابكي على فرقةِ الظاعنينا
فلو ذهبت مُقلةٌ بالبكاءِ لفرطِ الغرامِ لكنّا عمينا

وهناك شخص ت: بصر بحالي . وهو يذري دمعه لسماع ارتجالي . فقلت له : ماجلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال اليك عني . واذهب لسبيلك ودعني . فاني اتمتع بالبكاء . وأسحُ الدمع على هذه الاصداء . واقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة مارأيتُ لأذريتَ معي الدمع . ولاسمع بكاؤك الجمع » وهذه المقامة ـ كما لاحظنا ـ تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره ونجد هذا الشيء ايضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب(١٢٨٤) .

اسلوب المقامات :

شاعت الصنعة في الكتابة العربية في القرن الرابع للهجرة شيوعاً كبيراً . وتسرّب أثرها الى المقامات . حيث نجد بديع الزمان . الذي يعد الرائد في انشائها . يأخذ نصيباً كبيراً من الاساليب البلاغية المصنعة . ويدخلها بذكاء وقدرة فائقة في مقاماته . ولاسيما السجع والجناس والتصوير . ونراه احياناً يكثر من الألفاظ الغريبة على نحو ما جاء في المقامة النهيدية . ويحشّد فيها الشعر الذي يطول احياناً كما في المقامة البشرية . ويقتبس من القرآن الكريم . والامثال العربية المشهورة . ويورد اطرافاً من معارف كثيرة في اللغة العربية وآدابها . انه يأتي بكل ذلك باحكام وتناسق وانسجام وعرض مشرق لطيف يروق السامع ويستهويه .

واذا انتقلنا الى الحريري نجده اكثر ايغالاً في استخدام فنو ن البديع وامعاناً في تناول غريب اللغة . ولا عجب حين قال عنه العماد الاصبهاني : « قد اعجز الفصحاء بصناعته . وأبر على البلغاء ببراعته . وبلغ السماء ببلاغته . واوجد حليُ الزمان العاطل بجودة صياغته وقد اشتهرت له المقامات شرقاً وغرباً . وبعداً وقرباً (١٢٨٥) .

(١٢٨٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٨ .
(١٢٨٤) ينظر : تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٠٨
(١٢٨٥) خريدة القصر وجريدة العصر قسم العراق ، ٤ / ٢ : ٦٠١

لقد أقرّ الحريري في مقدمة مقاماته بقوله : انها « تحتوي على جد القول وهزله . ورقيق اللفظ وجزله . وغُرر البيانِ ودرره . وملح الادب ونوادره . الى ماوشّحتُها به من الأيات ومحاسن الكنايات . ورصّعته فيها من الأمثال العربية . واللطائف الادبية . والأحاجي النحوية . والفتاوى اللغوية . والرسائل المبتكرة . والخطبِ المحبّرة . والمواعظ المبكية . والأضاحيك الملهية »(١٢٨٦) .انّ هذه الامور ساقها في مقاماته بتمكن واقتدار وباسلوب محكم رصين . فيه حيوية نافذة . ومرد هذه الحيوية كما يرى الدكتور شوقي ضيف « الى هذا الثوب المتوهج من السجع . الذي لانجد فيه نقصاً . فقد فصله وقطعه ووشاه ذوق رفيع . كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة . وكيف يشدّ اللفظة الى أختها وكأنه عازف قيثار »(١٢٨٧) .

وجاء بعد الحريري كتّاب كثيرون . دبجوا مقامات في موضوعات متنوعة دينية واجتماعية وادبية . وحاولوا ان يظهروا فيها براعتهم الاسلوبية والبلاغية . ولكنهم لم يلحقوا به ولا برائده بديع الزمان الهمداني . وبقوا في دائرة التقليد الاّ ما ندر منهم . ولذلك لم تأخذ مقاماتهم الشهرة والانتشار في الأوساط الادبية وبقيت بين مخطوطة ومطبوعة بعيدة عن ايدي الدارسين (١٢٨٨) .

(١٢٨٦) مقامات الحريري ص ١٢

(١٢٨٧) المقامة للدكتور شوقي ضيف ص ٦٩

(١٢٨٨) تنظر المقامات التي الفت بعد الحريري في كتاب : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٧٥ ـ ٢٤١ .